الخطاب القرآني عند الشيخ : محمد الطاهر التليلي (1910.2003م) المفهوم وآليات الفهم

The Quranic discourse of the sheikh Muhammad al-Taher al-Talili (1910-2003) Concept and understanding mechanisms

د/ خضرة علي 1،*

1جامعة الوادي (الجزائر) khedourah-ali@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2022/12/08 تاريخ المراجعة: 2023/01/02 تاريخ النشر:2023/03/31

ملخص:

يتمحور المقال حول دراسة الخطاب عند علم من أعلام الفكر الاصلاحي في الجزائر، ولا سيما في ما قدمه الرجل من جهود علمية مضنية في دراسة الخطاب القرآني ومحاولة فهمه ونشر علومه رسما وتدوينا وبيانا ، وتتشكل نقاط المحاولة من العناصر التالية : أولا : مفهوم مصطلح الخطاب لغة واصطلاحا

ثانيا : التعريف بالعلامة محمد الطاهر التليلي ، السوفي ، القماري ، ثالثا : جهوده في خدمة كتاب الله تعالى

رابعا : جهوده في آليات فهم الخطاب القرآني خامسا : توصيات ونتائج.

الكلمات المفتاحية: الخطاب. محمد الطاهر التليلي. آليات فهم الخطاب.

Summary :

The article focuses on the study of the discourse of one of the prominent figures of reformist thought in Algeria, especially in the strenuous scientific efforts that the man made in studying the Qur'anic discourse and trying to understand it and disseminate its sciences graphically, codifying and clarifying. The points of the attempt consist of the following elements

First: the concept of the term discourse linguistically and idiomatically

Second: Introducing the scholar Muhammad Al-Taher Al-Talili, Al-Sufi Al-Qamari

Third: His efforts to serve the Book of God Almighty

Fourth: His efforts in the mechanisms of understanding the Quranic discourse

Fifth : Recommendations and results.

Keywords : Discourse - Muhammad al-Taher al-Tlili - Mechanisms of understanding discourse

* المؤلف المراسل.

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين وأشرف الصلاة وأتم التسليم على من بعثه ربه رحمة للعالمين، هاديا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) .وبعد

يسرني أن أتقدم بهذه الورقة الموسومة : الخطاب القرآني عند الشيخ محمد الطاهر التليلي ، المفهوم وآليات الفهم ، والتي تسلط الضوء على تجربة علم من أعلام الفكر الاصلاحي في الجزائر ، ألا وهو الشيخ محمد الطاهر، التليلي ، السوفي القماري .رحمه الله تعالى .الذي شغل معظم حياته في خدمة كتاب الله تعالى فهما ونشرا وبيانا.

وقد أردت من خلال هذه الورقة العلمية أن أعرف بشخصية الشيخ وجهوده في خدمة كتاب الله تعالى وفهم مراده ، ليكون لجمهرة الباحثين وطلبة العلم الشرعي ـ خصوصا ما تعلق بخدمة كتاب الله تعالى نشرا وبيانا ـ تجربة يحتذى بها ، كعلم من أعلام منطقة سوف الذين نذروا عمرهم لنشر كتاب الله وتوضيح بيانه ، ولا عجب لهذه الحاضرة العلمية العريقة من حواضر الجنوب الجزائري ،في تخريج نوابغ علمية في مختلف جوانب العلم والمعرفة ، فقد أسهمت ببعث الكثير من أبنائها البررة الذين برعوا في حفظ كتاب الله وخدمة ألفاظه بمنظومات الرسم القرآني ومحاولات بيان مراد الله تعالى باستنطاق اللفظ القرآني وإبراز معانيه ومضامينه.

ولعل من أبرز من أنجبت المنطقة في الفكر والاصلاح : الشيخ حمزة بوكوشة وعمار الأزعر وعبد القادر الياجوري ومحمد الأمين العمودي والعدواني والطاهر العبيدي وأخوه أحمد العبيدي وأبو القاسم سعد الله وعلي بن سعد القماري والشيخ خليفة بن حسن لقماري والشيخ أحمد دغمان والشيخ عبد الرحمان العمودي والشيخ إبراهيم العوامر والشيخ البخاري عوينات ،والطاهر العبيدي والشيخ عز الدين عباسي ...وغيرهم.

وقد جاءت الدراسة في أربعة مطالب ، ختمت بخلاصة ت تضمن أهم النتائج والتوصيات

وقد قسمت محاور الورقة كالتالي :

المطلب الأول : مفهوم مصطلح الخطاب في اللغة والاصطلاح

المطلب الثاني : التعريف بشخصية الشيخ محمد الطاهر التليلي

المطلب الثالث : جهوده في خدمة القرآن

المطلب الرابع : آليات فهم الخطاب القرآني عند الشيخ محمد الطاهر التليلي

المطلب الخامس : نتائج وتوصيات

المطلب الأول : مفهوم مصطلح الخطاب.

أولا - مفهوم الخطاب لغة:

ورد في لسان العرب أن «الخطاب هو مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، والمخاطبة مفاعلة من الخطاب (1).

وقد تضمن الذكر الحكيم مادة خطب في عدة مواضع، حيث قال سبحانه وتعالى::((وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)) (2).

وبذلك يكون المدلول اللغوي هو توجيه الكلام من شخص لآخر، يتضمن توجيها أو أمرا أو طلبا.

عندما نعود إلى مصادر الفكر الإسلامي لتحديد مفهوم الخطاب الإسلامي اصطلاحا نجده أنه : "كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، ويفترض فيه التأثير على السامع أو القارئ، الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تولد فيها " (3)

ثانيا: مفهوم الخطاب اصطلاحا

الخطاب هو إيصال الأفكار إلى الآخرين بوساطة الكلام المفهوم، واللغة في ذلك هي أداة الخطاب ومحمله للمتلقي ، وهي وعاء لأفكاره ومضامينه التوجيهية (4)

وبذلك يقصد بالخطاب الكلام الموجه للأفراد قصد التوعية والإفهام، المعبر عن الأحكام الإسلامية والمفسر لمختلف الظواهر الدينية في صورتها التوفيقية المستمدة من الوحي أي مصادر التشريع الإسلامي أو في صورتها التوفيقية المستقرة في الفكر الإسلامي وما توصلت إليه جهود العلماء والمجتهدين والتي حازت إجماع الأمة ولم تعد عرضة للخلاف أو مطية للتأويل والتأويل المضاد

المطلب الثاني : التعريف بشخصية محمد الطاهر التليلي

من أعلام الجزائر المغمورين، والمصلحين الذين آثروا الابتعاد عن الأضواء ،ونذروا عمرهم لخدمة كتاب الله تعالى العلامة الشيخ محمد الطاهر التليلي (1910 .2003م(،

الذي قال فيه الشيخ المؤرخ الدكتور أبو القاسم سعد الله ::

"جمع الشيخ الطاهر التليلي أطراف العلم بمعناه الواسع.، فقد عاش في مرحلة الموسوعات والمعارف العامة.، لذلك كان عميق المعرفة بالقرآن وعلومه والحديث الشريف وفروعه والفقه وأصوله وآراء المفسرين. وكذلك كان واسع المعرفة بالأدب وفنونه، والفرائض والفلك، والتاريخ والتراجم.

وكان حاضر البديهة ولكنه مع ذلك لا يتسرع في الإجابة. وكان قوي الذاكرة حتى آخر أيام حياته، حافظا للمسائل والمتون والشواهد والآيات القرآنية كأنه يستظهرها لتوّه ."(5) "...

يعتبر الشاب محمد الطاهر أحد الطلبة الذين تربوا وتعلموا وتتلمذوا على يد الشيخ عمار بن ازعر، حيث أخذ عنه العلم والمعرفة ونهل من معينه الصافي حبّ الدّرس ومدارسة العلوم الدينية واللغوية في بلدته قمار، ومن بين الذين زرع فيهم (عليه رحمة الله) أفكاره الإصلاحية وكرّه إليهم الدجل والخرافات والخزعبلات التي كان يتمسك بها أذناب المستعمر وخدامه.

هذا، ولم يُغيّر الشاب الطاهر بعد هجرة شيخه، بل واصل طريقه إلى الاستزادة من العلم النافع في حواضر العلم بتونس مع ثلة من إخوانه كعبد القادر الياجوري وعلي بن سعد وكلاهما من بلدة قمار ، ليعود بعدها معلما وناصحا ويكتب اسمه ضمن العلماء العارفين والمصلحين، نحاول في الفقرات الآتية أن نجلي دوره الإصلاحي والتعليمي في سوف وخارجها. وخصوصا في علاقته بخدمة كتاب الله وإيضاح معانيه للناشئة والأجيال.

أولا : مولده ونسبه وتعلمه.

هو محمد الطاهر بن بالقاسم بن الأخضر بن عمر بن أحمد بن قاسم بن أحمد التليلي ، القماري ، السوفي، الجزائري، وهذه التسمية كثيرا ما عرّف بها الشيخ الطاهر نفسه في مؤلفاته.

ولد يوم الخميس 6 ذي الحجة 1328هـ الموافق لـ 1910/12/8م، تنحدر أسرته المشهورة والمعروفة بأولاد سيدي التليل من بلدة فريانة بالقطر التونسي، وهي أسرة عريقة مشهورة، ولهم زاوية أنشأها في بداية القرن السابع عشر للميلاد جدّ الأسرة الشيخ الصوفي أبو العباس أحمد التليلي وبها ضريحه (6) .

وينتمي أولاد تليل الذين هم بقمار إلى عرش الصيايدة إحدى العروش السبعة بالبلدة المذكورة(7) .

والذي انحدر إلى وادي سوف من تلك الأسرة هو القاضي الشيخ أحمد التليلي في حدود عام 1760م.

وكان سبب قدومه إلى سوف أن علي باشا باي بن محمد بن علي تركي (باي تونس) بعثه رفقة وفد من أعيان بلدة: "خنقة سيدي ناجي" للتوسط لإجراء صلح بينه (علي باشا باي) وبين أهالي سوف في قصة طويلة.

هذا، وإن الشيخ أحمد التليلي لما قدم إلى وادي سوف في تلك المهمة سالكا طريق "خنقة سيدي ناجي" طاب له المقام ببلدة "قمار العامرة " واشتغل بها قاضيا ومعلما. ورزق بولد حوالي عام 1161 هـ. 1748م سمّاه قاسم، وكان لهذا الولد شأن كبير بعده حيث سار على خطى والده وتولى خطة القضاء بـ"قمار" و"تاغزوت."

تربّى وترعرع الشيخ محمد الطاهر في أسرة متدينة محافظة، تحوطها رعاية مزدوجة من قبل الأب والجد الأخضر، بدأ مشواره التعليمي بحفظ القرآن في كُتّاب الحي في الخامسة من عمره، وقد أجاد حفظه وهو في سن مبكرة. تلقى نحو 22 علما في الفقه وأصوله والحديث وعلومه والتفسير وفروعه والأدب والبلاغة والرياضيات، وهذا في بلدته قمار على يد تسعة من الشيوخ، نذكر منهم: الشيخ عمار بن الأزعر، الذي يرجع له الفضل – كما يقول التليلي - في تأديبه وتثقيفه وتربيته التربية الإصلاحية الدينية والوطنية، كما تتلمذ على يد الشيخ محمد بن السايح اللقاني وغيرهما .(8)

كان الفتى محمد الطاهر يحظى باهتمام خاص من جهة جدّه؛ الذي كان يتوسم في حفيده الصغير مخائل النجابة والذكاء والاستقامة، لذلك خصّه بمزيد من العناية فأعطاه من وقته الكثير، وكان الفتى في بادئ الأمر حريصا على نقل كل ما يسمعه ويفهمه من الدروس إلى جدّه ويعيده عليه، فما كان من الجدّ إلا أن يشجعه ويثني عليه إلى أن قوي عزمه وتحقق أمله. (9)

ومن أجل التعمق والتبحر في صنوف العلوم كبقية أترابه صغار الطُلبة، توجه الشاب محمد الطاهر إلى جامع الزيتونة المعمور عن طريق بلاد الجريد وقد بلغ من العمر 17 عاما، وهذا بتاريخ: 5 ربيع الثاني 1346هـ الموافق 1927/11/1م، ولعل من دفعه وشجعه ونصحه بهذه الرحلة العلمية المباركة شيخه الجليل عمار بن الأزعر..

كان جامع الزيتونة هو المؤسسة الثقافية الإسلامية الأشهر والأقرب إلى وادي سوف.

وكان الفتى محمد الطاهر التليلي أثناء التحاقه به لم يتجاوز سنه السابعة عشر، وبقي ملازما للتحصيل متفرغا للدراسة مدة سبع سنوات توّجها بشهادة التطويع سنة 1934م.

كما ربط الفتى علاقات مع جيله من الطلبة الذين أصبحوا بدورهم شيوخا في الزيتونة، فكانوا يتراسلون معه في شؤون العلم والأدب والإخوانيات ، واستمرت بينهم الزيارات لسنوات عدة.

وهكذا نهل الشيخ التليلي من مختلف العلوم والمعارف الدينية والعربية على أيدي نخبة من علماء عصره المشهود لهم بالرسوخ انطلاقا من بلدة «قمار» بوادي سوف وصولا إلى عرصات جامع الزيتونة وأساطينه.

انخرط محمد الطاهر في صف الطلبة الزيتونيين بالجامع المذكور، فتفتح عقله على علوم شتى، ومكث به سبع سنوات يتلقى السلوك العلمي والمعارف والفنون الحديثة من أفواه فطاحل العلماء، من أمثال: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ البشير النيفر ، والشيخ العربي الماجري وغيرهم كثير (10).

وبعد رحلة العلم والمعرفة بتونس، رجع التليلي إلى بلدته سنة 1935م ، منتشيا ، فرحا بحصوله على شهادة التطويع ، وهو خالي الوفاض من الأفكار الهدامة، متأثرا ومتشبعا بالحركة التعليمية الإصلاحية الوليدة، التي نهل مبادئها من قبل عن شيخه لزعر؛ وتحددت مرجعية الشيخ الفكرية والسياسة.(11)

ثانيا : مهامه ووظائفه.

تحمس الشيخ الطاهر بعد رجوع من الزيتونة لنشر العلم وبث الأفكار الناضجة المتشبعة بالروح الإصلاحية على الأسس العلمية الزيتونية، ووجد أن خير وسيلة لتحقيق طموحه هو التعليم، لكن الواقع الاجتماعي الضاغط في بلدته حال دون ذلك؛ فهاجر للتدريس في صفوف جمعية العلماء في الشمال .

وفي سنة 1354هـ/ 1935م التحق الشيخ بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان تعيينه في قرية تسمى: " كمبيتة " إحدى قرى مدينة بجاية التي وصل إليها في 27 ذو الحجة 1353هـ الموافق 1935/4/1م .(12)

بعد أن التقى في قسنطينة بالشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ الفضيل الورثلاني ، وقد سبق له اللقاء في طريق رحلته بمراقب الجمعية الشيخ محمد خير الدين ببسكرة . وما هي إلا أشهر معدودة على مباشرة الشيخ لعمله التدريسي إلى جانب الإمامة والخطابة بالمسجد الجامع (13)، حتى أظهرت السلطات الاستعمارية انزعاجها من نشاطات الشيخ، وأحسّت بخطورة الدروس التي يقدمها للتلاميذ، وما تتضمنه من بعث للوعي الديني والوطني فيهم؛ ولعل خير شاهد على ذلك تلك القصائد الوطنية التي نظمها الشيخ بنفسه، وجعلها نشيدا يردده التلاميذ يومياً، وتشكل أفكارها خطورة المستعمر، ونتيجة ذلك تعرض الشيخ إلى مضايقات أثناء التدريس انتهت إلى مغادرته القرية والرجوع إلى مسقط رأسه بقمار. (14) .

ولم يجد الحاكم الفرنسي في تلك المنطقة (واد المرسى) إلا التضييق على الشيخ ومحاصرته؛ فأدخله السجن ثم طرده من القرية رغم تمسك شيخ القرية "محمد آكلي" ورئيس مجلسها البلدي والمواطنين به وتعيينهم محاميا عنه، والأغرب من هذا أنّ الحجة التي تمسّك بها الحاكم الفرنسي هي اعتبار الشيخ التليلي أجنبيا ولا يملك جواز سفر للمنطقة، وليس له رخصة لمزاولة التعليم، ولكن حقيقة جنايته - كما يقول الشيخ عن نفسه - هو ديني الصحيح وإرشاد الناس إليه، ووعظي إياهم بما أنشره فيهم من تنوير عقول وتثقيف أفكار (15).

ورغم نجاح سكان قرية كمبيتة في سعيهم إرجاع الشيخ للتدريس والوعظ عندهم في القرية؛ إلا أن المرض وقساوة شتاء ذلك الدوار حالتا دون استقراره بين ظهرانيهم ؛ فاعتذر وأسفه عميق لما لاقاه عندهم من طيب نفس وعظم ترحاب . (16)

ثالثا : جهاده ووفاته

عاد الشيخ إلى قمار في شهر مارس 1938م، وشرع في الخطابة والإمامة بالمسجد الكبير مع التعليم بالمدرسة (مدرسة النجاح) التي أسسها الأهالي للتعليم العربي الحر في أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي، وتعمّدوا عدم إلحاقها بمدارس جمعية العلماء تفاديا لتعريضها للإغلاق، ولكن دار لقمان لم تبقى على حالها . في ديسمبر 1952م قرر أعضاء الجمعية المحلية المسيّرة للمدرسة وبالإجماع ضم مدرستهم قانونيا إلى سلك مدارس جمعية العلماء، كما هي مُنظمة إليها أدبيا وعلميا، وقد تولى الشيخ التليلي إدارة المدرسة والتدريس بها في الفترة ما بين 1939-1961م، كرس كل جهده ووقته لتنوير الناشئة وتعليمهم انطلاقا من أفكاره الإصلاحية وما أوتي من حكمة وعلم غزير .

اعتمد الشيخ التجديد في الطرق والأساليب التربوية للعملية التعليمية، نافست المدارس الفرنسية المنتشرة بإقليم سوف بل تفوقت عنها، ضمت التلاميذ من الجنسين بحيث تقدم منهم لامتحان الشهادة الابتدائية العربية في موسم 1953م، تسعة طلبة منهم ستة ذكور وثلاث بنات.(17).

وكان من الأهداف التي رسمها الشيخ وأعوانه من خلال التعليم في هذه المدرسة، هو تكوين الفرد المتشبع بالإيمان والخلق الحسن، المنافح عن دينه متخذا القرآن نبراسه ، العاضّ على أهداب وطنيته بالنواجذ.

ولعل خير شاهد على ذلك تلك القصيدة التي نظمها الشيخ بنفسه (18).

وجعلها نشيدا يردده التلاميذ يومياً :

صغير الشعب هيا للمعالي *** وهيِّء المجد تحت ضيا الهلال
وأدرك من علوا نجم الكمال *** فذاك النجم قد ناداك هيا
بلادك تبتغي منك الديونا *** فحاذر أن تكون لها خؤونا
فما ترضى لغيرك أن تكونا *** وما ترضاك لو تلوي هاليّا
فها هي الجزائريا فتاها *** لها تاج على الأفلاك تاها
ولكن أمس في الأجواء تاها***فهلاّ اليوم تأتي به عليّا
فغيرُك من صغار القوم هبُّوا***وللأوطان قد هرعوا ولبُّوا
وقد شقوا الصعاب فليس شعب***تراه اليوم إلا أصمعيّا
صغير الشعب أنت غدا كبير***وشعبك بالعلا أبدا جدير
وليس له لدى البلوى مجير***من الأسراء غيرك أحوذيا

هكذا قضى الشيخ فترة عطائه من حياته في الجهاد العلمي، مربيا ومدرسا وناصحا أمينا، جادت قريحته بصنوف من تصانيف عدة في الفقه والفتوى والتاريخ والأدب والشعر، وبقي قلمه سيالا إلى أخريات حياته رغم ضعف الجسم ووهن العظم، وبقي هكذا ديدنه إلى أن لقي ربه في رمضان 1424هـ الموافق لـ 2003/12/11م ، ودفن في قمار رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.(19) .

المطلب الثالث : جهوده في خدمة القرآن الكريم.

كان الشيخ التليلي (رحمه الله) في مختلف الأوساط العلمية والثقافية نسيج وحده. عاش في وادي سوف سنين عددا وله فيها المحبون الكثيرون، والتلامذة العارفون لفضله والمعتزون بالتلمذة عليه، والأصدقاء الأوفياء الذين يثنون عليه بالخير كله، عرفانا وامتنانا لما له من العلم والفضل والتضحية.

كان رحمه الله من العلماء الربانيين الذين تركوا الدنيا ومتاعها وآثروا ما عند الله تعالى.

عرفه القاصي والداني بالعلم الرفيع والتواضع الجم الذي يذكرك بأصحاب السير العطرة من كبار العلماء الذين تركوا ذكرا لا ينسى بما بذلوا من خير إلى دينهم وأمتهم.

هذا، وإن المرء ما إن يطالع طرفا من آثار الشيخ التليلي المكتوبة إلا ازداد له إكبارا، وبه إعجابا، ولفضله وعلمه تنويها وإشادة.

ولعل اهتمام الشيخ التليلي كان في المقام الأول بالقرآن ولغة القرآن، وكفى بالقرآن شرفا، وبعلومه فضلا ورفعة. فلقد أنجز رحمة الله عليه عدّة منظومات في المعارف القرآنية، وكانت له جولات عطرة في مدارسة كتاب الله تعالى، وكان باستمرار يغتنم كل سانحة لدعوة الناس عامة والناشئة خاصة إلى التعلق بالقرآن الكريم وحفظه والتزام أحكامه.

يقول الشيخ التليلي: (20)

كتاب الله أفضل ما قرأنا***وأجدر بالتلاوة من سواه

فقم واحفظ كتاب الله تحظ***وتُحسب في الألى قطفوا جناه

ففيه الدين والدنيا جميعا***فطوبى للذين به تباهوا

وزينة مدرسيّ لوذعيّ***كتاب الله يَحْفَظُ في صباه

وحليةُ عالمٍ فطنٍ لبيبٍ***تصدّر في المجالس أن يراه

دليلٌ فيصلٌ وحسامُ حقٍّ***لمن يبغي الهجومَ على عِداه

تمسّك ما استطعت به ولازم***تلاوتَه ولا تفصم عره

ولا تختر حديث الناس عنه***فتُحمى في القيامة عن حِماه

ويقول في الدعوة لحفظ القرآن (21)

احفظوا القرآن أبناء العرب***فهو تاريخٌ ودينٌ وأدبْ

وبه العزّة من بين الورى***لجميع العُرْبِ من ابن وأبْ

وهـو أمجـادٌ لمن شاء العُلا***وهـو طاعـات لمن رام القُرَبْ

فاحفظوا القرآن تحظوا بالمُنى***وتنالــوا كـلّ غايات الطلبْ

احفظوا القرآن في أعمالكم***احفظـوا القرآن في كل النِّسَبْ

احفظـوا القرآن في أخلاقكم***فهو عنوانٌ على حسن الأدبْ

ويقول أيضا : (22)

ومن يحفـظ القرآن كان دليـله***وحجّته يـوم التكلّم بالحُجـَجْ

وكان له سيفا حسـاما لمـن له***تصدّى بإلقاء الشكوك من الهَمَجْ

وكان له عند التفكّر عبـــرةً***وموعظة تهديــه للطيّب الأرجْ

وكــان له وقت المشيب عبادة***وذكرا به تحيا المواتُ من المهجْ

ففــي آيه كلُّ التسابيح صيغة***فرطّب به ذكـراً لسانك وابتهجْ

وفي يوم حشر الناس كان شفيعنا***ومنقذنا إن شاء ربك من وهج

وفي خدمة كتاب الله تعالى ترك الشيخ محمد الطاهر التليلي ثروة علمية متنوعة من المصنفات في علوم القرآن والفقه واللغة والتاريخ والأدب ومن أشهرها في خدمة مفهوم الخطاب القرآني : المدخل إلى غريب القرآن منظومة من 445بيتا (23) ، رسائل في رسم الألف في القرآن كما في المصحف ، والتعليقات البيانية على منظومات مسائل قرآنية وقواعد البيان في الثابت والمحذوف في القرآن على رواية ورش ..وغيرها

المطلب الرابع : آليات فهم الخطاب القرآني

لقد توفرت في شخصية الشيخ محمد الطاهر التليلي صفات نادرة الاجتماع في رموز الفكر والاصلاح في هذا الزمان وما بعده ، ذلك أنه كان نسيج وحده ، بما حباه الله من المنزلة في أوساط عموم الناس

ولا يطلع أحد عن حياته أو عن جانب منها إلا وأدرك أن الرجل كان عالميا ربانيا بحق ، ولم يتبوأ فقيدنا هذه المنزلة في قلوب الناس ،وما وفقه الله إليه من هذا التراث الجم في فهم مراد الله تعالى من كتابه ، إلا أنه اتصف بسمات بوأت الشيخ هذه المنزلة.

هذه الميزات سميناها في ورقتنا هذه آليات فهم الخطاب القرآني

أولا : إخلاص النية وسلامة القصد منطلق الشيخ محمد الطاهر في دعوته لفهم كتاب الله تعالى.

لا ينكر أحد ممن عرف الشيخ أو درس عنه شدة اهتمام الطاهر التليلي بكتاب الله تعالى ، وصدق تعامله معه ، هذا ما دعاه أن يتكلم عن نفسه مرة ، مصرحا بسر بلوغه هذا المقام..

قال رحمه الله: « وأمَّا أنا فالَّذي يهمُّني هنا، والَّذي أعتقدُه وأرجو أن ألقى الله به وأن يرضاه منِّي وأن يثبِّتني عليه؛ هو إخلاصٌ في اعتقادي أنَّ الدِّين عند الله الإسلام، وأنَّ من يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه، وأنَّ الله أكمل لنا ديننا، وأتمَّ نعمته علينا بهذا الدِّين يومَ هدانا إليه ورضيه لنا دينًا، وأنَّ أصول هذا الدِّين وقواعده وأمَّهات مسائله وكلُّ ما يحتاجه المسلم من أمور الدُّنيا والآخرة كلُّها مستوعبة بوضوح وبيانٍ في كتاب الإسلام

ودستوره العظيم ألاَ وهو القرآن العزيز الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ." » (24)

.ثانيا : الفكر الجامع والعقل الموحد ميزة الشيخ النيرة التي يسرت له حسن القبول في خطابه

يذكر . مرة . ابنه عمر أن الشيخ رحمه الله كان يحزنُه انشقاق البلد الإسلامي الواحد إلى فرق وأحزاب وجماعات، ومذاهب شتى ، تفرق أكثر مما تجمع

رحم الله الشيخ فإنّه يدرك حقًا معنى قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران:103]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِين * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون﴾[الروم:31-32]، فنسألُ الله -جل وعلا- أن يجمع قلوب المسلمين وكلمتهم على توحيد ربهم واتِّباع سنَّة نبيهم ﷺ، .

ومما يناسب ذكره هنا أن الشيخ رحمه الله ردّ في ديوانه على الزّمخشري حين مدح كشافه بقوله:

إنّ التّفاسير في الدّنيا بلا عددٍ *** ولم أر فيها مثل كشافي

إنْ رمتَ الهدى فالزم قراءتهُ *** فالجهلُ كالدّاء وكشّافي كالشّافي

قال الشيخ في الرد عليه

لو امَّحى منه ما قدْ ساء من أدبٍ *** لكان أولى بإنصافٍ من الصَّافي

لولا اعتزالٌ وطعنٌ من مؤلِّفه *** لقلتُ بحرٌ ولكن موردٌ صافي

الصافي: هو تفسير لإمام من الشيعة محمد مرتضى المعروف بالشيخ ملا محسن الكاشي (ت1090هـ) فيه جزآن (25).

.ثالثا .الجهاد العلمي بالدعوة إلى الإصلاح، والتدين الصحيح ركيزة بيانه

قال شيخنا في ترجمته لنفسه: «والفضل الأكبر في تأديبي وتثقيفي وتربيتي التَّربية الإصلاحيَّة الدِّينيَّة الوطنية يرجع إلى الشَّيخ عمَّار بن الحاج عبد الله الأزعر، فهو الَّذي نشر الإصلاحَ والدِّين الصَّحيح في الأوساط الصَّحراويَّة بسوف، وعلى الأخصِّ بقمار، وتخرَّج عليه الكثير من طلبة قمار، علمًا وأدبًا وإصلاحًا وخلقًا؛ فكان حامل لواء الجهاد العلمي والإصلاحي في سوف، وكنَّا جنودًا له ومن ورائه، وكان شديد الوطأة على المبتدعين والطُّرقيِّين والقبوريِّين، ومن لفَّ لفَّهم وجرى خلفهم، وبتلك الشِّدَّة، وهاتيك الوطأة ؛ ترك أثرًا إصلاحيًّا في قمار، لا يمكن أن يُمحى منها مهما طالتِ السُّنون وتعاقبت الأجيال، وكانت قِبلة قمار وعامَّة قُرى سوف عشَّ البدع والضَّلالات ووكْرَ الطُّرقيَّة الضَّالة المُضِلَّة؛ فكان الصِّراع في قرية قمار بين الحقِّ والباطل والإفساد طويلاً ومستمرًّا ...»(26).

رابعا : دعوة الشيخ لوحدة الصف وجمع الكلمة والنصيحة في الرأي مسعى حياته كلها

وقد تمثل هذا المسعى النبيل في حياة شيخنا كلها في سعيُه الدَّؤوب المشرق في جمع الكلمة واتِّحاد الصَّفِّ ونبذ التَّفرق بين أبناء الأمة الواحدة، وعلى هذا كان يربِّي تلاميذه بمدرسة النَّجاح، حتَّى إنَّه في سنة 1950م، وبمناسبة ختم الدُّروس كتب قصيدةً غايةً في الإبداع دعَا فيها إلى جمع الكلمة ووحدة الصَّفِّ ؛ونبذ الفرقة والعصبية

:فقال

ولتسمعُوا قبلها نصحي ينبّهكُم *** فربَّ ناصح قوم نصحُه عذُبا

إنّي لأنصحُكم يا قوم فاتحدُوا *** وطاردوا عنكم الأحقادَ والغضبا

وكافحُوا كلَّ شيطانٍ يفرّقكُم *** بالعفو طوْرًا وبالهجرانِ إن دأَبا

داء التَّفرُّق ما حلت جراثمه *** في الشّعب يا قوم إلاّ انحلَّ وانشعَبا

وجنّبُوا عنكم حمراءَ فتنتِكم *** فإنَّها النّارُ لا تُدنوا لها الحطَبَا

كفُّوا عن السُّوء واسعوْا في مفاهَمَة *** لخيرِ أوطانكُم فالأمرُ قد حزبا. (27)

خامسا: صلاح المنشأ ومنطلق الفلاح " و أنذر عشيرتك "مبدأ دعوته ومنطلق رسالته الهدائية

لَمَّا كان صلاحُ المجتمع ينبعُ من صلاح الأسرة، وصلاحُ الأسرة قائم على صلاح الأمِّ الرَّاعية في بيتها، كان .الشَّيخ ينصحُ ويوصي الفتاة المسلمة بالتَّديُّن الَّذي هو سمة عفَّتها وصلاحها

:وممَّا قاله في وعْظه لها

إنّ التّديــن حليــة *** أجمل بهـا عند الفتاةِ

فتدِين دين محمَّد *** دِين التَّمدن والحيـاةِ

إلى أنْ قال :

والأُسْـوة الحسنى لهـا *** في نسوةِ السَّلف الثِّقـاتِ

وبـأمَّـهـات المؤمِنيـ *** ـنَ في كلِّ شأنِ المؤمناتِ

في الدِّين أو في الخُـلقِ أو *** في البـاقيـاتِ الصالحاتِ

وختمها بقوله فيمن اتَّصفت بما ذكره في أوَّل قصيدته

وهي الَّتي يَسْمُو بهـا الْـ *** إسلام في كلِّ الجهاتِ .(28)

سادسا : عدم اليأس ورد الجميل لأهله، مقصده القرآني الصرف الذي أوصل خطابه للسامع

إن مما تميز به الشيخ التليلي (رحمه الله) هو تلك الروح الفياضة في رد الجميل لأهله ، هذا المقصد القرآني السامي كان ديدن الشيخ في حياته ،إذ اتسم طوال حياته بمعرفة فضل أولي الفضل ، بل كان يدعو من يسمع صيحته إليه ، ويطيع رأيه ، أن يقتدوا به في هذه السمة العالية ، وكان أولهم إلى هذا الهدى النبوي الراقي ، فلم ينكر جميل أساتذته ومعلميه إلى أن فارق الدنيا ، ولم يزل يلج بزرع الأمل وترك القنوط ورفع الهمة بين الناس رغم الجهل المستشري في ربوع الوطن في تلك الحقبة ، إلا أنه سبل حياته في الدفاع عن كلمة الحق ونصرة أهله بكل ما أوتي من قوة.

وكان بمواقفه هذه لا يتوان في تقديم الواجب في وقته لأهله وعلى أحسن وجوهه .

ومما يستدل به في هذا الموضوع ما قاله في مقطوعة شعرية له عنونها بـ: "أنا لا أنسى الواجب" والتي يقول فيها :

لست والله بنـاسٍ***واجبي نحو أناسي
وإذا ملت براسـي*** هكـذا فالقلب راس
ليست الكاس بكاسي***عندما تحظى بكاس
بل أنا جـافٍ وعاسٍ***لامرئٍ حِلْسِ نُعَاس
بؤسُ أقـوامي لباسي***وكذا البأس كباسي
مَجْدُهُـمْ غيرُ مُداسٍ***بنعـالٍ أو مَـدَاس
ذَهَبٌ غيرُ نُحَـاسِ***طَبْعُهُمْ فَلْيَحْسُ حاس
فَهُمُ أَصْلِي وسَاسي***وبِهِمْ نِلْتُ حَسَاسي.(29)

سابعا : العجز البشري والإعذار للخالق والمخلوقين ، سلعته المثمرة التي تخالط القلوب.

وفي ختام هذه السانحة العلمية في آليات التعامل مع كتاب الله تعالى والعيش به في حياة الناس ،ارتأيت أن أختم سوانح الشيخ في سيرته الثرية العالية التي كان يسير بها وينشرها بين الناس ما مثله تلامذته من بعده من اعتراف المقصرين في حق شيخهم ، ودعواتهم الخالصة له بالقبول ، وأن يصفح عنهم ما لم تدركه أيديهم من الوفاء لشيخهم ، وقد كان في مقدور أبصارهم .

وممن كتب في رثائه الشاعر السفير أحمد الطيب معاش، (30) بقصيدة طويلة عنوانها: «وداع ورثاء النضو» .

ومما قال فيها:

لقد قصرت في حق التليلي***فلم أنصفه حتى بالقليل
وقد ألغيت عَقدا بين شعري***وبيني منذ سافر جل جيلي
وكنت نذرت إهدائي رفاقي***وأشياخي مديحي أو عويلي
وغادرنا المحاضر والمربي***وجامع كل أوصاف الجليل
فلم أسمع بخطب أو مصاب***ولم أُرسل من المنفى رسولي
فـ(طاهر) واد سوف كان فذّا***بعلمٍ أو حديث أو أصـول

إلى أن يقول:

فقد فقدت جزائـرنا عظيما***صبورا في الشدائد والمهول
إذا قصرت في حق لجهلي***بأصداء الرحيل أو العـويل
فجزء من حياتي في اغتراب***وجـزء فـي منام أو مقيل

ويختم القصيدة قائلا:

وعذرا يا إمامي تاه مُهري***وجنّح طائري واهتاج غـولي
وعفوا يا مربي بعض جيلي***كـ(سعد) أو سعيد أو خـليل
فلا تعتب علي فسوء حالي***وأيامي البطيئة مثل ليلي
وسامحني على مرّ التنائي***فترحـالي غدا كالمستحيل
وأسقامي تكبلني بركني***وأحلامي كنجمي في أفـول

الخاتمة والتوصيات

ختاما لهذه السانحة الفكرية التربوية مع آثار فضيلة شيخنا المحتفى بمآثره في خدمة كتاب الله ونشر مقاصده الربانية الهادفة ، ندلف إلى مجموعة نقاط وتوصيات نرسو بها في خاتمة ورقتنا :

1. يعتبر الشيخ محمد الطاهر التليلي واحدا من أعلام سوف العامرة من رجال الفكر والاصلاح .
2. تجربته مع كتاب الله حفظا وفهما وتنزيلا ورسما وبيانا حجة على المفرطين في كتاب الله .
3. الشعر والبيان وفصاحة اللغة هي سلاح أهل الحق في البيان ونشر الحقيقة القرآنية .
4. منشأ الأجيال على مائدة القرآن وفهم مراميه السامية مكمن السلامة وصلاح الخلق .
5. التواصل بين الاجيال العلمية والتناسق الفكري قوة الكلمة لأن البيان الشرعي رحم بين أهله.
6. معرفة مكانة الاعلام والعلماء والمصلحين أول مراقي سلم الترضي والتطور والنجاح .
7. الأسرة الصالحة مشتل الأمة الواعية بنظر العلماء وطاعة الأولياء وصدق الانتماء لهذا البيان .

أتمنى أن نكون قد وفقنا إلى حسن البسط من وجهة نظرنا في عرض طريقة تعامل شيخنا محمد الطاهر التليلي مع نشر ألفاظ كتاب الله تعالى ، لتكون تجربته حجة على الطالبين لفهم مراد الله ولسائر الباحثين ، ولنحيي من جهة أخرى مآثر علماء قدموا واجبهم في طريق المعرفة وحملوا الأجيال مسؤولية الحفاظ على أمانة ميراث العلماء وما سطروا من مدادهم في تنزيل آيات الذكر الحكيم وبيان هدي المصطفى الصادق الوعد الأمين .

الهوامش :

1. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ابن منظور، لسان العرب ،دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1992، مادة "خطب"، ج1، ص 360

- 2هود: الآية 37 ـ2

3 أمين عبد الله الطيار: تأويل الخطاب الديني في الفكر الحداثي الجديد، حولية كلية أصول الدين، القاهرة ،العدد 22، المجلد الثالث، 2005، ص 12

4. أبو العطا أشرف: تطوير الخطاب الديني كأحد التحديات التربوية المعاصرة، ملتقى الإسلام والتحديات المعاصرة، جامعة سوهاج، مصر، 2007، ص 6- و7

5. خارج السرب لأبي القاسم سعد الله ، ط2 ، الجزائر ، دار البصائر ، 2009م ، ص : 162.161

-6. محمد الطاهر التليلي، هذه حياتي، مخ. نسخة بحوزة الباحث علي غنابزية، الوادي، ص. 3-4؛ أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، دار البصائر، الجزائر 2009م، ص. 69، 157؛ إبراهيم رحماني، الشيخ محمد الطاهر التليلي وجهوده في البحث الفقهي والإفتاء، مطبعة سخري، الوادي 2011م، ص. 15.

- 7. أولاد بوعافية، أولاد عبد القادر، أولاد موسى، أولاد هويمل، أولاد احميد، الصيايدة، التمامة. محمد الطاهر التليلي، من تاريخ وادي سوف، ص. 19-20.

- 8. محمد الطاهر التليلي، هذه حياتي، ص. 13؛ علي غنابزية، مساهمات علماء وادي سوف في النهضة العلمية والحركة الصحفية الوطنية 1900-1986م، مطبعة مزوار، الوادي 2014م، ص. 90- 91.

-9. محمد الطاهر التليلي، هذه حياتي، ص. 5-9؛ سعد الله، خارج السرب، ص. 157؛ إبراهيم رحماني، المرجع السابق، ص. 17.

-محمد الطاهر التليلي، هذه حياتي، ص. 82؛ علي غنابزية، مساهمات علماء وادي سوف، ص. 10.91

- المرجع نفسه، ص 91-11.92

12. أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1998م، ص. 203.

13. - أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1998م، ص. 203 .

- محمد الطاهر التليلي، هذه حياتي، ص. 35-14.37

- علي غنابزية، مساهمات علماء وادي سوف، ص. 92-15.93

16. محمد الطاهر التليلي، هذه حياتي، ص. 41-42؛

- نفسه، ص. 17.46

- المرجع نفسه، ص. 90-18.96

19. إبراهيم رحماني، نقلا من التوجيهات التربوية في القصائد والمقطوعات المدرسية للتليلي ، مخطوط ، ص. 22

20. إبراهيم رحماني ، فتاوي التليلي المسماة المسائل الفقهية ، دار الإمام مالك البليدة ، الجزائر 2003، ص. 103.

21..إبراهيم رحماني ، صفحات من سيرة العلامة الشيخ محمد الطاهر التليلي الجزائري عليه رحمة الله ،ص. 15

22 .إبراهيم رحماني ، المرجع السابق ، ص : 19 وما بعدها

23. . المرجع نفسه ص 20

24. ينظر فتاوي التليلي ، إبراهيم رحماني ، دار الامام مالك . البليدة . الجزائر ، ط1، 2020م ، ص : 105

25ـ «الهيئة المرعية في الأذكار الشرعية» محمد الطاهر التليلي (ص60 . 61) . مخطوط

26 هذه حياتي» محمد الطاهر التليلي، مرجع سابق ، ص 13 . 14

27. .ديوان الدموع السوداء» محمد الطاهر التليلي (1/ 10 .

28. «الدموع السوداء» محمد الطاهر التليلي (1/ 31)

29. .«الدموع السوداء» محمد الطاهر التليلي (1/ 21

30. إبراهيم رحماني ، صفحات من سيرة العلامة الشيخ محمد الطاهر التليلي الجزائري عليه رحمة الله ، ص : 15 و16

قائمة المصادر والمراجع :

1. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ابن منظور، لسان العرب ،دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1992، مادة "خطب"، ج1،

2. أمين عبد الله الطيار: تأويل الخطاب الديني في الفكر الحداثي الجديد، حولية كلية أصول الدين، القاهرة ، العدد 22، المجلد الثالث، 2005،

3 - أبو العطا أشرف: تطوير الخطاب الديني كأحد التحديات التربوية المعاصرة، ملتقى الإسلام والتحديات المعاصرة، جامعة سوهاج، مصر، 2007،

4. أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، دار البصائر، الجزائر 2009م،؛

5. إبراهيم رحماني، الشيخ محمد الطاهر التليلي وجهوده في البحث الفقهي والإفتاء، مطبعة سخري، الوادي 2011م، ص.

6. أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1998م..

7. إبراهيم رحماني ، فتاوي التليلي المسماة المسائل الفقهية ، دار الإمام مالك البليدة ، الجزائر 2003.

8. إبراهيم رحماني ، صفحات من سيرة العلامة الشيخ محمد الطاهر التليلي الجزائري عليه رحمة الله

9. ديوان الدموع السوداء» محمد الطاهر التليلي ، ديوان مخطوط

10. الهيئة المرعية في الأذكار الشرعية» محمد الطاهر التليلي ، مخطوط

11. علي غنابزية ، مساهمات علماء وادي سوف في النهضة العلمية والحركة الصحفية الوطنية 1900-1986م، مطبعة مزوار، الوادي 2014م